العدد الواحد والعشرون
2004

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1372 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2004 مسيحي

- من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم
- الفكر الأندلسي والافتراضات الإيديولوجية للنهضة الأوربية
- من أعلام ليبيا (الشيخ أحمد البهلول)
- بصمات يهودية على حركة الاستشراق

الكاتب الإسلامي الكبير:
محمد فريد وجدي

(1295-1373هـ / 1878-1954م)

وَآثَارُهُ الفِكْرِيَّةُ: (المَدَنِيَّةُ وَالإِسْلَامُ).. نَمُوذَجًا

أ. دكتور السيد أبو ديب
كلية الآداب - جامعة الفاتح

تعود صلتي بالكاتب الإسلامي الكبير (محمد فريد وجدي) إلى أوائل الستينات حين وقع بين يدي كتابه القيم (المدنيّة والإسلام) في طبعته الثالثة الصادرة عام 1353هـ ـ 1933م، فانتقيته ثم أتيت على قراءته في شغف ونهم. ومنذ ذلك التاريخ حُفر اسم صاحب هذا الكتاب في ذاكرتي، من ثم أخذت أتصيد بين الحين والآخر بقية مؤلفاته وآثاره الفكرية التي تباعدت فترات طبعها، وكانت هذه المؤلفات كثيرة ومتنوعة الموضوعات، ذُكر أنها «تطير في آفاق العالم الإسلامي، وتترجم إلى عدة لغات شرقية وغربية»[1]. وقد نال بها في

(1) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، جمعها وراجعها ورتب لها، د. محمد رجب بيومي، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية) 1995، ص7.

حياته شهرة فائقة، لعل أبرزها وأشهرها موسوعته (دائرة معارف القرن العشرين) التي أصدرها في عشرةِ مجلدات ضخام.

وقبل أن أستعرض جهود هذا الكاتب الإسلامي الكبير العلمية وآثاره الفكرية ومؤلفاته الإسلامية، أرى من الواجب التعريف به، وتقديمه للسادة القراء، بما يلقي الضوء على حياته وسيرته الذاتية، فقد ذُكر أنه «لم ينهض من تلاميذه الكثيرين من يكتب تاريخه الحافل بالمجد والرفعة، وكأنه لم يكن ملء البصر والسمع في دنيا تتحيّف المجاهدين وتتناسى العاملين»[2].

● سيرة حياته:

رغم قلة المصادر والمراجع التي ترجمت لهذا المفكر الإسلامي الكبير، فإن هذه القلة لم تمدنا بالكثير من المعلومات عن حياته وظروف نشأته التي أسهمت في تكوينه الثقافي والعلمي. إن ما ذكرته المصادر والمراجع عن هذه الشخصية الفذة يكاد يكون نتفاً من الأخبار نقلها البعض عن الآخر، نقلاً حرفياً في بعض الأحيان. ويمكننا أن نلملم هذه الأخبار في هذا العرض الموجز لسيرة حياته.

ميـلاده:

اختلف في تاريخ ميلاد الأستاذ (محمد فريد وجدي)، فهنالك من يذهب إلى أنه ولد حوالي سنة 1245 هـ (1878 م)، قال بذلك الزركلي في أعلامه[3]، والأستاذ الطاهر الطناحي في مجلة (الهلال)[4]، وأخذ به الأستاذ زكي الدين في كتابه (مشاهير أدباء العصر الحاضر)[5]، وأثبته المشرفون على (الموسوعة العربية

---

(2) نفسه، الصفحة نفسها.

(3) الأعلام، الزركلي، (بيروت: دار العلم للملايين)، المجلد السادس، ط/ الخامسة، 1980، ص329.

(4) العدد مارس (آذار) 1954.

(5) نقلاً عن: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، جـ 11، ص 126.

الميسرة)[6]. وينفرد كل من يوسف إلياس سركيس[7] وعمر رضا كحالة[8] بما أورداه من أن تاريخ ميلاده، كان سنة 1292هـ ـ 1875م.

هو محمد فريد بن مصطفى بن علي رشاد وجدي، ولد ونشأ بالإسكندرية، انتقل إلى دمياط حيث أقام بها زمناً، حين كان أبوه وكيل محافظة فيها، ومنها انتقل مع أبيه إلى السويس التي أصدر بها مجلة (الحياة) في أواخر التاسع عشر.

ويبدو أن إقامته بهذه المدينة لم تدم طويلاً، فقد انتقل منها إلى القاهرة التي سكنها وعمل بها في وظيفة صغيرة بديوان الأوقاف، وفيها اشتغل بالصحافة ثم أنشأ مطبعة فأصدر بها جريدة (الدستور) اليومية عام 1907، و(الوجديات) ـ 1921 ـ 1922 ـ التي وصفت بأنها شبه مجلة أسبوعية، كما نشر بهذه المطبعة بعض كتبه وعلى رأسها (دائرة القرن الرابع عشر = العشرين للميلاد) في أجزاء متتابعة اكتملت في عشرة مجلدات وكان إلى جانب ذلك يحرر في عدد كبير من الصحف، فقد أسهم عام 1923 في تحرير مجلة (نور الإسلام: التي كان يصدرها الأزهر والتي سميت فيما بعد (مجلة الأزهر)، ثم تولى تحرير هذه المجلة وإدارتها نيفاً وعشر سنين. وقبل وفاته بنحو عامين اعتزلها، مخلداً للراحة، فقد ذكر أنه عكف في أواخر أيامه على المطالعة والتأليف ونشر عدداً من الكتب والتصانيف في موضوعات فكرية متنوعة. لقد آثر ملازمة بيته، لما عرف أنه «كان مترفعاً عن غشيان المجالس العامة، وقلما يرى في حفل أو مجتمع، يأنس بزواره في بيته، وقل أن يزور أحداً أو يجيب دعوة»[9].

---

(6) الموسوعة العربية الميسرة، إشراف د. محمد شفيق غربال (بيروت: دار إحياء التراث العربي) 1987، المجلد الثاني، ص1944.

(7) معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف إلياس سركيس (بيروت: عالم الكتب) مطبعة سركيس بمصر 1928 الجزء الثاني، ص1451 ـ 1452.

(8) معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي) بدون تاريخ، الجزء 11، ص126.

(9) الإعلام، الزركلي، ص 329.

وفاته:

كانت بالقاهرة في فبراير (شباط) 1954، وفيها دفن عن عمر يناهز ستة وسبعين عاماً.

● شخصيته ونشاطاته الثقافية

كان من الكتاب الفضلاء الباحثين، وصحفياً مارس مهنة الصحافة زمناً طويلاً، يزيد على نصف قرن. اعتبرته (الموسوعة العربية الميسرة) من المفكرين المصريين البارزين[10]، ووصفه (كحالة) بأنه حكيم وكاتب وصحفي[11]، أما د. محمد رجب بيومي فقد أشاد بعصاميته التي تمثلت في شخصه «تمثلاً رائعاً، يدعو إلى الالتفات، فقد اتجه بنفسه إلى تحصيل معارف كثيرة، فيسرت له دون تلقين وتوجيه، حتى أصبح بها علماً من الأعلام البارزة في دنيا الأدب والثقافة»[12].

استشعر منذ مطلع شبابه دوره نحو وطنه وأمته وعروبته وإسلامه، وأيقن أن مثل هذا الدور يتوجب تكويناً ثقافياً رصيناً، وجدية في التحصيل العلمي ومثابرة في العمل وعطاءً غير محدود. لقد أحس أن عليه واجبات ثقالاً نحو دينه، فلم يتردد في القيام بها على أكمل وجه وأحسن صورة، بخاصة حين «رأى الإسلام لعصره غرضاً تتجه إليه السهام ويتناوله الأعداء بالإفتراء والتشكيك. أما أنصاره فقد أضافوا إليه من الخرافات والغرائب ما ضاعف محنته، وأعان الموتورين عليه من ذوي الأهواء، وتلك محنة أليمة»[13].

تمثلت بداية عطائه الفكري المطبوع في كتابه (تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية) الذي ظهر في طبعته الأولى عام 1898، وهو لم يتجاوز

---

(10) الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ص1944.

(11) معجم المؤلفين، مرجع سابق، ص126.

(12) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي، جمعها وراجعها وقدم لها د. محمد رجب بيومي، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية) 1993، ص5.

(13) نفسه، الصفحة نفسها.

العشرين سنة من عمره، وقد ذكر أنه كتبه أولاً باللغة الفرنسية ثم ترجمه بنفسه إلى العربية بهذا الاسم، وفي العام التالي (1898) نشر رسالة سماها (الفلسفة الحقة في روائع الأكوان).

بهذين العملين انطلق الأستاذ محمد فريد وجدي في درب التأليف والكتابة والنشر، كانت خطوطه الفكرية واضحة كل الوضوح، فقد تأسس منذ البداية على تحصيل المعارف المتنوعة والاطلاع الواسع على مختلف العلوم والمثابرة على البحث الذي لا تعتوره الشكوك بسماحة هذا الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان وعدم تعارضه مع العلم.

باختصار كان الأستاذ محمد فريد وجدي ـ كما يقول د. بيومي «صاحب رسالة هامة، يكرس في سبيلها جهده، ويبذل في تبليغها قوته وماله، فلم يكن يتخذ من الكتابة الأدبية مجالاً للتزيد والمباهاة، ولكنه وضع أمامه هدفاً مرموقاً يجهد في الوصول إليه»[14]، وقد تركز هذا الهدف في خدمة الإسلام والجلد في الدفاع عن مبادئه وتعاليمه.

لم يعدم الأستاذ وجدي وسيلة تترجم هدفه النبيل إلا واستخدمها فقد «أصدر الكتب المتتابعة، وأنشأ الصحف والمجلات المتعاقبة، وسارت الأيام بأبحاثه وآرائه حتى أصبحت آثاره العلمية ملاذاً يعتصم به الإسلام في مهب الريح»[15]. وقد ساعده في ذلك تفانٍ لا تشوبه شائبة، وعمل دؤوب لا يعرف الملل ولا الكلل و«إخلاص ملهم يمدّه العقل الثاقب والاطلاع الغزير»، وقدر هائل من الثقافة. ويمكننا أن نقف على حقيقة هذا القدر الذي تسلح به الأستاذ وجدي، في كفاحه النبيل ضد كل ما يمس الإسلام بسوء أو إفتراء أو شبهات. لقد اكتسبه من قراءاته الشاملة التي كان فيها «يستوعب ويتعمق، ويتنقل بين المعارف الكونية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والدينية»[16].

---

(14) نفسه، الصفحة نفسها.

(15) نفسه، الصفحة نفسها.

(16) نفسه، ص 6.

نعم بهذا القدر الهائل من الثقافة المتنوعة والقراءات الشاملة والاطلاع الغزير في مختلف حقول المعرفة وميادين العلوم الإنسانية وقف الأستاذ وجدي وجهاً لوجه أمام عظمة الإسلام ورفعته التي «تؤكد مطابقته لأرقى الدساتير المنطقية التي يتقيد بها العقل السليم، فما من فضيلة تدفَعُ إلى رقي البشرية وإصلاح الكون إلا تجد دعامتها الوطيدة في قواعد الإسلام ومبادئه»[17].

لقد أنكر الأستاذ وجدي وبشدة أن يرمى الإسلام بالجمود القاتل بغياً دون علم، وآمن إيماناً قاطعاً أنه لا بد من دفاع مقنع عن الإسلام وتعاليمه حتى يكشف اللثام عن حقيقته الناصعة. لذلك انطلق في قوة وثبات يلقي حججه الدامغة، ويقدم براهينه الصادقة، ويؤكد قضاياه العادلة، ليدحض الشبهات الظالمة التي كان يطرحها الأوروبيون وتفد من الغرب إلى ديار المسلمين بقصد زرع الفتن وإثارة العواصف وتحريك الهواجس العاصفة وبذر بذور الشك والريبة فيما «تضمنته الشريعة الإسلامية من مثل فائقة تدفع إلى الحضارة والعمران وتهيِّئ للإنسان وسائل الأمن»[18].

لقد أدرك الأستاذ وجدي ـ وفي سن مبكر ـ أهمية العلوم الحديثة وحاجة الإنسان العربي المسلم إليها، كما وقف على قلة المؤلفات العصرية التي تشارك في بناء الثقافة الحديثة وتمهد للأمة طريق المعرفة والدراية. لذلك لا غرابة أن ينتمي جزء كبير من كتبه إلى مثل تلك المؤلفات التي تدخل في دائرة الموضوعات العصرية. فهذا كتاب عن (الإسلام في عصر العلم) وآخر يتحدث عن (المدنية والأسلام) وثالث يقف (على أطلال المذهب المادي) ورابع يتناول (الحقيقة الفكرية في إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية) وغيرها من الكتب التي قام بتأليفها وعمل على نشرها، وأعدّ لبعضها مطبعة خاصة ليسهل تداولها بين الناس وبأسعار زهيدة. لقد فعل كل ذلك عن رضاء وطيب نفس، وفي حماس متقد وإصرار شديد على البذل السخي بالصحة والمال والوقت.

---

(17) نفسه، الصفحة نفسها.

(18) نفسه، الصفحة نفسها.

● آثاره الفكرية:

نوهت المصادر والمراجع التي تناولت سيرة حياته ـ على قلتها ـ بآثاره الفكرية وأعماله العلمية ومؤلفاته الإسلامية وهي كثيرة، وقد اعتمدنا في رصدها وبيان موضوعاتها على بعض فواتحها، إذ كان يضع لكل كتاب فاتحة، بل كان يحرص على أن يقدم لكل طبعة من طبعات كتبه بفاتحة، كما اعتمدنا بشكل كبير على تلك الصفحات التي قدم بها الأستاذ محمد رجب بيومي كتابين من كتب الأستاذ وجدي، قام بجمع مادتهما من الصحف والمجلات التي كان ينشر بها، وأيضاً على ما أثبته الذين ترجموا له من مؤلفات كالزركلي في أعلامه، وكحالة في (معجم المؤلفين).

ولقد أشارت (الموسوعة العربية الميسرة)[19] إلى أن اسمه اقترن بعملين جليلين هما: (دائرة معارف القرن العشرين) التي صدرت منها طبعتان و(صفوة العرفان) وهو تفسير للقرآن الكريم، ويذكر الزركلي أن كتابه (كنز العلوم واللغة) من أنفس كتبه، مشيراً إلى بدايات عطائه الفكري وتصانيفه الإسلامية بأنها تتمثل في «نشر رسالة له سماها (الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان) سنة 1899، وكتاب (تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية) كتبه أولاً باللغة الفرنسية وترجمه إلى العربية بهذا الاسم، وسماه في طبعة أخرى (المدنية والإسلام)»[20].

وقد أورد يوسف إلياس سركيس في (معجم المطبوعات العربية والمعربة)[21] ثبتا بمؤلفات الأستاذ محمد فريد وجدي، على النحو التالي:

1 ـ (الإسلام في عصر العلم)، جزءان: الجزء الأول بمطبعة الترقي، 1320 هـ، (717 صفحة)، الجزء الثاني بمطبعة الشعب، 1322هـ، (472 صفحة).

2 ـ (تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية)، بمطبعة العثمانية، 1316هـ، (109 صفحة).

---

(19) الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ص1944.

(20) الإعلام، مرجع سابق، ص329.

(21) معجم المطبوعات العربية والمعربة، مرجع سابق، ص1451 ـ 1452.

3 ـ (الحقيقة الفكرية في إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية)، بمطبعة الترقي، 1318هـ.

4 ـ (دائرة معارف القرن الرابع عشر ـ العشرين للميلاد)، وهو غير (كنز العلوم واللغة) الآتي، طبعة أولى بمطبعة دائرة المعارف 1910 إلى 1918، 10 أجزاء، وطبعة ثانية بالمطبعة المذكورة سنة 1923 بعشرة أجزاء أيضاً.

5 ـ (صفوة العرفان)، على التفسير، وله مقدمة، طبع حجر، مصر، (715 صفحة)، وطبعة ثانية سنة 1323هـ/ 1905م.

6 ـ (على أطلال المذهب المادي)، مطبعة دار المعارف، 1912.

7 ـ (الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان)، رتب على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، مطبعة عبد الرزاق، 1313هـ (84 صفحة).

8 ـ (كتاب المعلمين)، وهو شرح تفصيلي لمنهج الدراسة الذي أصدرته وزارة المعارف للمدارس الأولية، مطبعة دار المعارف، 1918، (576 صفحة).

9 ـ (كنز العلوم واللغة)، هو دائرة معارف تحتوي على فصيح اللغة العربية وخلاصات العلوم النقلية والعقلية، ومختصر تراجم بعض المشاهير وغير ذلك، وفي آخره ملحق ذكر فيه ما فاته من الألفاظ، مطبعة الواعظ، 4 ـ 1333هـ (858 صفحة) (وعدد صفحات الملحق 16).

10 ـ (مجموعة الرسائل الفلسفية)، الرسالة الأولى: معترك الفلسفتين المادية الروحانية، صدرت في ربيع الأول 1333هـ.

11 ـ (المدنية والإسلام أو تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية) ـ ذكرت الطبعة الأولى في رقم 2، والطبع الثانية، مصر 1322هـ ـ 1904م، ص162، وبمطبعة هندية 1331هـ.

12 ـ (مقدمة صفوة العرفان)، أنظر ما قبله: صفوة العرفان، رقم 5.

13 ـ (الوجديات) هى مقالات خيالية في سبيل الدين واللغة والوطن، مط/ الواعظ، 1328هـ، ص240.

وينفرد عمر رضا كحالة في (معجم المؤلفين) بذكر كتاب له بعنوان

(الإسلام دين عام خالد)[22]، ويضيف الزركلي إلى قائمة كتب الأستاذ وجدي المذكورة سلفاً كتابين: الأول بعنوان (ما وراء المادة) في جزئين، والثاني (نقد كتاب: في الشعر الجاهلي لطه حسين)[23]، وقد ذكره أيضاً يوسف إلياس سركيس في كتابه (جامع التصانيف الحديثة)، مشيراً إلى محتواه بقوله «لخص فيه المؤلف فصول كتاب (في الشعر الجاهلي) ونقد منها ما يتعلق بعلم التاريخ والاجتماع والأدب، كما أشار إلى بيانات نشره: مطبعة دائرة المعارف، 1926، (152 صفحة)[24].

• مع كتابه (المدنية والإسلام):

سبق أن ذكرنا أن أول أعماله الفكرية المطبوعة، كتاب باللغة الفرنسية، ألَّفه في نفي التهم التي ألصقها بالإسلام المفترون عليه من الغربيين، وقد أشار الأستاذ محمد فريد وجدي إلى هذا في الصفحة الأولى من الطبعة الثالثة التي صدرت بعنوان (المدنية والإسلام) بقوله:

«فابتدأت أعمالي بتأليف كتاب باللغة الفرنساوية، نفيت فيه عن الإسلام كل تهمة ألصقها به المفترون، وأثبتُّ الأدلة الحسية وبالإسناد على البدائة العلمية، أنه روح المدنية الحقيقية»[25].

وفي فاتحة الطبعة الثانية لهذا الكتاب التي صدرت عام 1904، يذكر الاسم الذي ظهر به في طبعته الأولى وهو (تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية)، محدداً منهجه في تأليفه بقوله: «سلكنا في تأليفه مسلك التحليل العلمي والاستقراء الفلسفي على قدر ما سمحت لنا وسائلنا وقوانا أمام هذا الموضوع»[26].

---

(22) معجم المؤلفين، مرجع سابق، ص126.

(23) الأعلام، مرجع سابق، ص329.

(24) جامع التصانيف الحديثة، يوسف الياس سركيس، (بيروت: دار صادر) 1993، ص82.

(25) المدنية والإسلام، محمد فريد وجدي، القاهرة 1353هـ ـ 1433م، الطبعة الثالثة، ص7.

(26) نفسه، ص10.

وفي هذه (الفاتحة نوّه بقبول الأمة العربية لهذا الكتاب بالحفاوة وتلقيها له بالتحبيذ والإطراء، مشيراً إلى أن الإعجاب به تعدى العالم العربي إلى العالم التركي ثم إلى العالم الأوروبي، ويتضح هذا في ترجمته للغة التركية من قبل أحد رجال القضاء، وإقرار نظارة معارف الدولة العليّة تدريسه في المدرسة الإعدادية الكلية ببيروت وهو ما اعتبره مزية لم يعهد حصول مثلها لكتاب عصري عربي، فضلاً عن ترجمته إلى اللغة البوسنية بواسطة أحد العلماء المدرسين في مدارسها، ونشر في جريدة (بهار) بتلك اللغة تباعاً في أعدادها من سنة 1904[27].

وفي ختام هذه الفاتحة أشار إلى صيت هذا الكتاب الذي سرى «شرقاً وغرباً، وطاف أكثر ممالك الإسلام، ولم ينته بعد من جولته كما يتبين لنا من توالي طلبه، وهو اليوم أسرع انتشاراً مما كان عليه من قبل، مما يدل على المستقبل الكبير الذي أوتيه هذا الكتاب». وقد تأكد هذا الكلام في فاتحة الطبعة الثالثة التي لم تتجاوز عدة أسطر، حيث ذكر أن مجلة (صراط مستقيم) العثمانية أعادت ترجمة الكتاب إلى التركية، كما ترجم إلى اللغة الأردية بالهند ثم الفارسية بفارس ثم التتارية بالقازان، وقد لقي مؤلفه الأستاذ وجدي في كل قطر حلّه عناية وإقبالاً[28].

وفي الصفحات الأولى من الطبعة الثالثة (عام 1933) التي جاءت بعد قرابة ثلاثة عقود من الطبعة الثانية، يذكر الأستاذ وجدي أن قصته مع هذا الكتاب لها بعد آخر، إذ لم يكد ينتهي من تأليفه باللغة الفرنسية حتى قام بترجمته إلى اللغة العربية، وقد اختار له عنواناً جديداً وهو (المدنية والإسلام).

على أية حال، تحتوي هذه الطبعة التي هي بين أيدينا، على الفواتح التي كان يقدم بها كل طبعة، تبين في مجموعها مقاصده من إعداد هذا الكتاب وتحديد موضوعاته التي تناولها في فصوله، منطلقاً من ملاحظة هامة رصدها

---

(27) نفسه، ص10 ـ 11.

(28) نفسه، ص11.

حول العلاقة بين الشرق والغرب والتي وجدها قد وصلت خصوصاً الجزء الأخير من القرن التاسع عشر «إلى درجة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، وأن مصالح الطرفين قد تشابكت تبعاً لذلك تشابكاً يوجب أن يتعارف الفريقان تعارفاً يمحو ما سبق من التناكر الذي كانت نتائجه دائماً اضطرام نيران الشقاق بينهما، مما يدعو إلى التقاطع المنافي لمطالب المدنية المستقلة»[29].

وبعين بصيرة ورؤية مستقبلية تتخطى عشرات العقود من الزمن، يؤكد الأستاذ وجدي «أن الاتصال بين الشرق والغرب أصبح عظيماً وسيأخذ في التزايد يوماً بعد يوم حتى تصير بلاد الشرق كلها عبارة عن معرض عام تعرض فيه أنواع البضائع والصناعات ويحضره الناس من كافة الملل واللغات»[30].

في ضوء هذه الرؤية الثاقبة ومن خلال هذا التوضيح، يحدد لنا الأستاذ وجدي الفكرة الرئيسة التي يقوم عليها كتابه (المدنية والإسلام) يلخصها في «تفهيم الأوربيين حقيقة الدين الإسلامي وماهيته، وإثبات أنه ضامن نيل السعادتين وكافل له راحة الحياتين... وأن الغربيين أصبحوا بجدهم ونشاطهم أصحاب السلطان والنفوذ على معظم العالم الإسلامي، وما داموا جاهلين بحقيقة الإسلام، ومعتقدين ما يهذي به بعض كتابهم ضده، فإنهم لا يستطيعون أن يروا في ديانة محكوميهم إلا عبئاً ثقيلاً على عقولهم، وحملاً مضنياً لمداركهم، فلا يقرونهم عليه إلا احتراماً لعواطفهم فقط، راجين من العلوم العصرية والمعارف الطبيعية القيام بتهذيبه في المستقبل»[31].

ويرجع جهل الغربيين بحقيقة الإسلام وسوء فهم بعض كتابهم له وكيل التهم ضده، إلى أنهم «لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين إلا البدع التي اخترعها صغار العقول وقبلها منهم العامة، وزادوا عليها أشكالاً من الأوهام والأضاليل تنفر منها الطباع البشرية وتنافي أصول المدنية»[32].

---

(29) انظر: المصدر السابق، ص4.

(30) نفسه، الصفحة نفسها.

(31) نفسه، ص4 ـ 5.

(32) نفسه، ص5.

ويؤكد الأستاذ وجدي سوء فهم الأوروبيين لحقيقة الدين الإسلامي، موضحاً أن أسبابه تكمن ـ بالدرجة الأولى ـ في أن هؤلاء الأوروبيين «لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما يرونه أمام أعينهم كل يوم، مثل الصياح في الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات مثل اقتراف أشد المنكرات المنافية للأدب والعقل في الموالد»[33]، أي تلك الممارسات والمظاهر الاجتماعية التي لا تمت إلى جوهر الإسلام وعقيدته بصلة، مستغرباً كيف «يتفرج عليها عقول هذه الأمة بدون أن يجدوا في أنفسهم ميلاً إلى رأب هذا الصدع المتفاقم الذي لم يقتصر على جرّ عوامنا إلى المنكرات والآثام فقط، بل إلى الإخلال أيضاً بعقيدة التوحيد النقية»[34].

كما يسترعي انتباهه الهبوط الهائل الذي وقعنا فيه بعد ذلك الصعود السريع، مشيراً إلى علله وأسبابه المتمثلة في ترك السنن واتباع البدع ـ مما ترتب على ذلك ـ على حد تعبيره، «جملة عوامل بشرية لا يراها إلا من ينظر للأشياء بمنظار العلم».

ويطرح الأستاذ وجدي حلاً لهذه الإشكالية، وهو أن يقوم الرجل الشرقي المسلم بواجبين: أولهما: «تفهيم العالم أجمع أن الدين الإسلامي فضلاً عن كونه بريئاً من الأضاليل التي ينسبها إليه بعض الكتبة، ومنزهاً عما يفعله العامة على مرأى من المتفرجين، فإنه ناموس السعادة الحقيقية وملاك المدنية الصادقة».

ثانيهما: «أن يسعى عقلاء هذه الأمة في محو البدع التي غص بها العالم الإسلامي وصارت نقطة سوداء في جبين الشرق وموضوع استهزاء كل من عنده مسكة من العقل»[35].

وفي خاتمة الطبعة الثالثة من كتابه القيم (المدنية والإسلام) يبين الأستاذ

---

(33) نفسه، الصفحة نفسها.

(34) نفسه، الصفحة نفسها.

(35) نفسه، ص6.

وجدي أن هدفه الوحيد من تأليفه لهذا العمل «إقامة الحجج العلمية على أن دين الإسلام ليس بالدين الذي يتناساه، ذووه أو يلوى الكشح عنْهُ متّبعوه، وأنه ليس بالدين الذي تعارضه العلوم العصرية والحقائق الفلسفية، بل هي مما تزيده تثبيتاً وتمكيناً وتزيد متبعه إيماناً ويقيناً.

وأنه كان يجب أن يجد من طلاب العلوم الجديدة أنصاراً أولي قوة ومكانة، لا أن يرى منهم إعراضاً وابتعاداً يدلان الرائي على ما الإسلام بريء منه وبعيد بعد السماء عنه»[36].

لذلك يستحث همم المسلمين ويطلب إليهم أن يكفوا إعراضاً عن دوائهم وإغضاءً عن دائهم، مستنكراً على متنوري هذه الأمة «أن تبقى حقائق دين الله مختبئة في مكاتبهم في مطاوي مجلداتهم وهم مغرورون بزخارف أفكار البشر مما يسمونه بالنظريات الفلسفية»[37]. مذكراً إياهم بذلك التطور الغريب المدهش الذي دخلت فيه الأمة العربية في مدة ثلاث وعشرين سنة، أي انتقالها من حالة الوحشية إلى المدنية في مدة لا تتجاوز ربع قرن.

ثم تساءل عن السر العجيب وراء ذلك التطور السريع، هل هو أمر عادي يستطيع الإنسان أن يدركه ويكتنه أمره، بجولة فكرة أو إلقاء نظرة؟ وهل يتصور عاقل أن يحصل ذلك الرقي كله بدون قواعد محكمة وأسس ممدينة؟[38]

بهذا تتجلى أهمية كتاب (المدنية والإسلام) للمفكر الإسلامي الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي، كما تتجلى في طريقة معالجة موضوعه القيم الذي عبر عنه العنوان؛ فقد مهد الكلام عن الإسلام بمقدمات رآها ضرورية لأنها «تنشئ للمطالع فكرة عامة على حالة الإنسان وتكاليف الحياة ونواميس الرقي والتأخر الذي تتجاذبه، وطبيعة النظامات التي تنازعت السلطة على الإنسان من قديم الزمان إلى الآن، والخلاف الناشئ من زمان مديد بين العلم والدين»[39].

---

(36) نفسه، ص7.

(37) نفسه، ص8.

(38) نفسه، ص9.

(39) نفسه، ص12.

وبعد هذه المقدمات تحدث عن ما هو الإسلام؟ وما هو الدين؟ وعن الناموس الأعظم للمدنية وهي الحرية، وهنا يقف أما جهاد الإنسان لنيل هذه الحرية التي هي عنده في الأصل ثلاث حريات: حرية النفس وحرية العقل وحرية العلم، وقد تكلم على كل منها بوجه الإجمال مع إثبات أنها بعض قواعد الإسلام.

ومن خلال منظور هذه الحريات التي هي أيضاً القواعد الأساسية الممدينة، تحدث عن قواعد ثانوية التي هي ـ في نظره ـ نتائج تلك القواعد الرئيسة وقد حصرها في الواجبات الشخصية والبيئية والاجتماعية، ثم فصل القول في كل واحد منها:

فمن واجبات الشخصية تربية النفس وتطهيرها من الأوهام، وتهذيبها بالعلم الصحيح، وتأديبها بمكارم الخصال، وتصحيح الاعتقاد من أجل سعادتها واطمئنانها، وتلبية مطالبها الجسمية التي حصرها في أمرين هما: حفظ الصحة والاعتدال في التصرف بمقومات الجثمان.

أما الواجبات البيئية أو العائلية فتتمثل عنده في إصلاح حال الأسرة أدبياً ومادياً، والترغيب في العمل والجدّ، موضحاً مقامها في الإسلام، ثم انتقل للحديث عن الواجبات الاجتماعية التي تنحصر عنده في واجبات المسلمين فيما بينهم، مشيراً في هذا الصدد إلى موقف الإسلام من الرّق، وواجبات المسلمين بالنسبة للذميين، أي لأهل الكتاب الذين هم في ذمتهم، وواجبات المسلمين بالنسبة لمعاهديهم ولمحاربيهم. وأخيراً ختم هذا الكتاب بإلقاء نظرة على الإسلام وأحوال المسلمين في زمنه.

ولعل الجديد في الطبعة الثالثة من كتاب (المدنية والإسلام) هو إلحاقه في نهايته بحثاً كتبه بعد وضعه بنحو عشر سنين، تناول فيه الأصول التي دعا إليها الإسلام تحت نور العلم العصري.

وبعد

فهذا نموذج حي من نماذج أعمال المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي التي أسهم بها في بيان حقيقة الإسلام والدفاع عن مبادئه وتعاليمه أكثر من نصف قرن، رأينا أن نستعرض محتوياته ونلخص موضوعاته، ليقف السادة القراء على غزارة علم هذا المفكر وعمق ثقافته ودسامة عطائه.